الفصل الثانى

العلم وتطور الأدب

لم يعرف التاريخ الحضارىّ نهضة للأدب والفن لم تلابسها نهضة اجتماعية اقتصادية . وقد لاحظ كثيرون من المفكرين هذه الظاهرة ، وتساءلوا أية واحدة من هاتين النهضتين تسبق الأخرى ، وتتسبب فى نموها وازدهارها .

ولما كان الواقع المادىّ سابقاً فى وجوده على الفكر الإنسانى ، وهو الذى أوحى به منذ بادئ الأمر ، ثم أثر كل منهما بعد ذلك فى الآخر وطوّره ، وأدى هذا التأثير والتأثر إلى كل من التقدم العمرانى والفكرى المطردين ، فإننا نستطيع أن نقول ، قياساً على ما تقدم — إن التقدم الاقتصادىّ فى كل مجتمع يخطو خطوته الأولى دائماً ، فيكتسب الإنسان الذى حققه خبرة وتجربة من وراء تحقيقه ترفعان من مستواه الفكرى والحسى ، ومن ثم تتهيأ الظروف الملائمة لنهوض الأدب والفن . . . بيد أن النهضة الاقتصادية قد تقطع شوطاً كبيراً فى طريق التقدم قبل أن تتحقق نهضة الأدب والفن وتلحق بها ويحدث بين النهضتين ذلك التأثير والتأثر الناشبان دائماً داخل كل جزء من الوجود على حدة ، وبين مختلف أجزائه عموماً ؛ والعاملان — مع غيرهما من العوامل — على استمرار التطور الذى يتم بفعلهما . . . وقد تستمرّ النهضة الأدبية فترة من الزمن بعد تدهور النهضة الاقتصادية طبقاً لنظرية القصور الذاتى .

وتقدم المجتمع اقتصادياً يقترن كذلك بتقدمه علمياً ، فكل خطوة يخطوها أحدهما تستتبع خطوة يخطوها الآخر ، وكلاهما يستمد من قرينه أسباب التقدم والازدهار .

بلغ ازدهار الأدب العربى أوجه فى الأيام الأخيرة من حكم الأمويين عندما ارتفع مستوى الحياة الاجتماعية على أثر ما تحقق من الازدهار المادىّ ، والتقدم العلمىّ والصناعىّ ، و بلغ أوج عصره الذهبى فى العهد العباسى عندما بلغت النهضة العربية الحضارية ذروتها . وقد انتقل ذلك التقدم العلمى والأدبى مع العرب إلى الأندلس ، وواصل هناك خطواته إلى الأمام ، وأسس صرحاً حضارياً شامخاً ما زالت

آثاره باقية ماثلة للعيان إلى الآن ؛ وامتد وقتذاك حتى جاوز جبال البرانس ، وغزا جنوب فرنسا خلال القرنين الحادى عشر ، والثانى عشر ، وواصل غزوه خلال تلك الفترة حتى وصل إلى إيطاليا وألمانيا شرقاً ، وإلى باقى أنحاء فرنسا شمالاً ، ومن هناك عبر المانش إلى إنجلترا ، وهيأ فى تلك الجزيرة أسباب النهضة التى أسفرت ، بعد فترة وجيزة من الزمن ، عن تألق نجم تشوسر ، وإرسائه أساس الازدهار الأدبى فى بلاده .

ومن ثم خرجت أوربا ، بفضل العرب ، من ظلام الجهل إلى نور المعرفة ، وكان عهد إحياء العلوم قميناً أن يحل عقب انتشار الحضارة العربية فى ربوعها ، وأن تتحقق نهضتها الكبرى ، ولكن ازدهارها تأخر قرنين من الزمان بسبب الحرب الدينية التى شنها البابا إينوسون الثالث ، بدافع تعصبه الدينى الأعمى ، على إقليم پروڤانس بجنوب فرنسا ، لتأثر سكانه بالأدب والعلم العربيين ، وأخذهم بأسباب الحضارة الإسلامية .

وليست نهضة أوربا التى تحققت فى عهد إحياء العلوم ، ونقلت الإنسانية من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، إلا امتداداً لنهضتها الأولى التى استمدت مقوماتها من علوم العرب وآدابهم وفنونهم خلال القرن الثانى عشر ؛ وإذا كان الاستشهاد بما يقرره المنصفون من الأوربيين أنفسهم فى هذا الصدد يقنع المنكرين لهذه الحقيقة بعد عجز الواقع التاريخى عن إقناعهم ، فإننا سنسوق فى فصول تالية من هذا الكتاب — إلى جانب الوقائع التاريخية التى تؤيد ما نقول — اعترافات لبعض أولئك المنصفين بما كان للعلوم والآداب العربية من أثر حاسم فى بعث النهضة الأوربية الحديثة ، وهى اعترافات لا نحسب أن أحداً من أشد كتاب العرب تحمساً لحضارة بلاده أدلى بمثلها .

ولا مفر لنا هنا من مناقشة منكرى الصلة بين التقدم العلمى والتقدم الأدبى ، فإن ذلك الإنكار يدحض حقيقة يستهدف هذا الكتاب إثباتها ، وهى أن الأوربيين بهروا بالحضارة العربية ، وعملوا على إقامة صرح حضارى كصرحها ، واضطروا فى سبيل تحقيق ذلك إلى الاستعانة بعلومها وفنونها ، وتهيئوا بهذا لتذوق آدابها ، ومحاولة محاكاتها .

يقع أولئك المنكرون فى نفس الخطأ الذى يقع فيه الناس حين يفصلون الأشياء

بعضها عن بعض عند محاولة إدراك كنهها ، وينظرون إلى كل منها على أنه ينشأ قائماً بذاته ، ويتطور منعزلاً عن غيره ، لا يتأثر به ولا يؤثر فيه . وإذا كان بعض العلماء قد فطنوا منذ أمد طويل إلى قيام صلة بين الكائنات المنتمية إلى فصيلة واحدة ، أو المتفرعة من أصل واحد ، فإن نشاطهم فى بحث ما فطنوا إليه اقتصر على تصنيف الكائنات والتنقيب عما بينها من أوجه الشبه والخلاف . والمقارنة بين بعضها وبعض ، ولكنهم لم يتغلغلوا إلى ما وراء الظاهر ، ولم يدركوا حركة تطور الكائنات وتفرعها إلى أنواع ، حتى اهتدى دارون إليها وحاول الوقوف على بعض القوانين التى تحكمها فى كتابه « أصل الأنواع » .

ولكن الفلسفة الحديثة لم تكتف بكشف دارون الجزئى المقتصر على أصل الأنواع وقانون تطورها ، وحاولت الاهتداء إلى الحركة العامة لتطور الوجود بأسره ، أى بما اشتمل عليه من ماديات ، ومن مجتمعات بشرية ، ونظم سياسية واجتماعية ، ومثل فكرية ، وقيم أخلاقية ، وفنون وآداب وما إلى ذلك ؛ فاحتضنت هذا كله بنظرة شاملة ؛ ولم يغب عنها وهى تستعين بالمنهج العلمى على كشف حركة تطور الوجود العامة أنه مترابط الأجزاء كترابط الآلة الضخمة ، وأن الصلة بين أجزائه جعلت كلاً منها يعمل مع غيره فى تحريك الوجود ، متعاوناً معه آناً ، ومقاوماً له آناً آخر ، وهو فى كلتا الحالين يتأثر به ويؤثر فيه تأثراً وتأثيراً يسفران عن التغير والتطور . . . ولم يغب عن تلك الفلسفة أيضاً أن ائتلاف الوجود يقوم على اختلافه ، وأن ترابط أجزائه يتولد من تناقضها ، فالنقائض المتنافرة تماسك ويتوشج بعضها فى بعض حتى حين يبلغ تنافرها أقصى مدى ؛ (كما يحدث بين الإيجابية والسلبية فى الكهرباء) والصراع الذى يحدث بين النقائض داخل كل شىء هو الذى يؤدى إلى تطوره فى ذاته ، وتطور كل شىء فى ذاته يحدث أثره ، بطبيعة الحال ، فى غيره . . . ونجمل ما تقدم فنقول إن كل شىء يتطور فى ذاته بفعل الصراع الناشب داخله من ناحية ، وبفعل الصراع الناشب بينه وبين غيره من ناحية أخرى . (وهذا يبدو واضحاً فى عالم الفكر عندما تتطور الفكرة فى ذهن الإنسان من ناحية ، وتتطور كذلك بفعل الصراع الإنسانى الجدلى مع غيره من ناحية أخرى) . ومن الواضح أن التطور والتغير اللذين لا ينقطعان عن أى جزء من أجزاء الوجود يؤديان إلى حركة تطوره وتغيره العامة .

والذين ينكرون الصلة بين الأدب والفن من ناحية ، والعلم من ناحية أخرى ، لا يفطنون إلى الكشوف الفلسفية التى ذكرناها . . . لا يفطنون إلى ترابط هذين النوعين من النشاط الإنسانى — برغم اختلافهما الظاهر — وإلى تأثر كل منهما بالآخر وتأثيره فيه .

يرى أولئك المفكرون أن الأدب يختلف عن العلم أشد الاختلاف فى طبيعته وأهدافه ، وأن كلاً منهما يعمل فى ميدان منقطع الصلة بميدان الآخر . وعلى ذلك ينعدم بينهما كل تأثير وتأثر . فالعلم وهو وليد العقل يعنى بالماديات ، ويحللها بحثاً عن كنهها ، ويحاول كشف النواميس التى تخضع لها ، ويتوخى بذلك الانتفاع بها على خير وجه . أى أنه يحاول تطويع الطبيعة لخدمة الإنسان ، وتسخير ما فيها من قوى لسد حاجاته المادية ، وتحقيق مطالبه التى تتكاثر ، ويتولد بعضها من بعض ، على قدر الشوط الذى يقطعه فى مضمار التقدم الحضارى . أما الأدب والفن ، وهما وليدا الحس والذوق الجمالى ، فيحاولان السموّ بالإنسان عن مشكلات الدنيا المادية المبتذلة ، وصرفه عنها إلى معنوياتها السامية ، وتمجيد قيمه الأخلاقية ومثله العليا ، وتبصيره بما فى الإنسانية من جمال يحجبه السعى وراء الرزق ، والتكالب على عرض الدنيا الزائل .

وترتب على هذا الفصل القاطع المانع بين العلم والأدب وإنكار تأثر كل منهما بنشاط الآخر ، أن ازدرى بعض العلماء الأدب على زعم أنه لا ينتج للإنسانية شيئاً نافعاً ، فهو مرتع للحالمين الكسالى ، ومعيق للعمل المجدى ؛ ومن الناحية الأخرى ازدرى بعض الأدباء العلم على زعم أنه يزحف على الأرض ، ولا يعنى إلاّ بتوفير مطالب الإنسان المادية التى تشغله عن المعنويات السامية . . . وأنه أصبح مطية ذلولاً يتوصل بها الطغاة إلى زيادة مالهم وسلطانهم وقدرتهم على بسط سيطرتهم على الناس ، وشن الحروب الاستعمارية لاستغلال الشعوب على أوسع نطاق .

بيد أن هذا التنافر بين بعض العلماء الذين يتعالون على الأدب والفن ، ويجهلون رسالتهما الاجتماعية ، وبعض الأدباء والفنانين الذين لا يقدرون العلم ، ولا ينظرون إلا إلى بعض النتائج السيئة التى أسفر عنها تقدمه ، وهو برىء منها ، غافلين عن النتائج الباهرة التى انتفعت بها الإنسانية ، وتمكنت بها من تحقيق تقدمها الحضارىّ . . . إن هذا التنافر السطحىّ بين الفريقين المذكورين لا يعنى أن

التآلف والتعاون بين العلم والأدب معدوم . وأن كلاهما لم ينفع الآخر . ولم يرفع مستواه . . . ألا يعتمد العلم فى ميدان الابتكار على التصور والإلهام الأدبيين كما يعتمد فى ميدان الصناعة على الذوق الفنى ؟ ثم ألا يكتسب الأدب والفن من العلم معرفة أعمق بالحياة التى يحاولون اليوم تصوير أغوارها وأسرارها فى دقة وأمانة ، بدلاً من الوقوف عند حد تصويرها السطحى . وإذا قيل إن رجال الأدب والفن لا يتعمقون فى دراسة العلم ، فنحن نسلم بأن هذه قاعدة تكاد تكون مطردة . ولكن أيوجد اليوم أديب أو فنان له وزنه لا يطلع على مختلف البحوث الفلسفية لتتجاوز فكرته عن الحياة مستوى السطحية والأمية . وتصل إلى أغوار الحقائق الموضوعية الكامنة وراء الظاهر الخادع ؟ ثم ألا يكون مثل هذا الأديب أو الفنان قد أفاد بذلك من أحدث الكشوف العلمية بعد أن تجاوزت الفلسفة مرحلة التأمل المجرد . وأخذت تستعين بتلك الكشوف العلمية لإدراك حقائق الوجود الموضوعية ؟

وقد بحث ألدوس هاكسلى فى كتابه « صلة العلم بالأدب » هذا الموضوع الذى نعرضه ، فقال إن تقارباً حدث بين العلم والأدب ، فقد صدرت بعض البحوث العلمية فى شكل مبسط ، أو « جماهيرىّ » ، مستعيرة الأسلوب الأدبى أو القصصى ، كما انتقى بعض كتاب القصة من موضوعات « شبه علمية » مادة لأعمالهم القصصية ؛ ولكن الكاتب رأى أن هذا التقارب ليس بالوسيلة المثلى التى تمكن الأدب من التأثر بالعلم والإفادة منه . . . بيد أن هذا التأثر والإفادة حدثا فعلاً — فى رأى ذلك الكاتب — عندما أمدّ العلم أسلوب الأدب ، لا سيما فى القرن التاسع عشر ، بذخيرة من ألوان التعبير ، وأكسبه مزيداً من الدقة والقدرة على الإفصاح . . ومما يراه ذلك الكاتب أن الأسلوب الأدبى لم يستفد كثيراً من التقدم العلمى المذهل فى القرن العشرين . . . وأن هذه الإفادة ينبغى أن تتحقق ، ولكنه قال إنه هو نفسه لا يدرى على وجه التحديد كيف تتم هذه الإفادة .

وعلى ضوء ما تقدم نعود فنناقش رأى هيجل فى الأدب والفن ، وقوله إن تطورهما أصيب بالشلل ، بعد ازدهارهما فى العهد الإغريقى .

بنى هذا الفيلسوف حكمه المذكور ، كما قلنا ، على إقامة حد فاصل حاسم بين فرعى الإدراك الإنسانى ، وهما الإدراك الحسى ، والإدراك العقلى ، وزعمه أن لكل من هذين الإدراكين مرحلة تمر بها البشرية ، وأن الفنون والآداب تزدهر فى

مرحلة الإدراك الحسى ، ثم تذوى بعد انتقال البشرية إلى مرحلة الإدراك العقلى .

مفهوم هذا القول أن الإحساس هو وحده المنبع الدفاق للفنون والآداب ، وأنه يتطور ويبلغ عنفوانه فى الوقت الذى يكون فيه العقل قاصراً ؛ فإذا اشتد العقل وترعرع وانتقل بالبشرية إلى مرحلة حضارية أسمى — يقر هيجل بأن مرحلة الإدراك العقلى أسمى من مرحلة الإدراك الحسى — اضمحل الحسّ ، وأفسح فى المجال لسيطرة العقل .

ولكن الواقع التاريخى يدل على أن الحواس ، وهى وسائل الإدراك ، تزداد تفتحاً وإدراكاً لدقائق الأشياء المحيطة بها على قدر الشوط الذى تقطعه البشرية فى تقدمها الحضارىّ . . . قال چون فريثيل فى ذلك :

« إن ما وفرّه الإنسان من إنتاج مادىّ ، وما ابتدعه من إنتاج معنوىّ جعلا حاسة نظره ، وسائر حواسه ، تتشبع بحقيقة أسمى وأعقد من الحقائق البدائية المباشرة التى تلقنها الطبيعة ، كما رفعا تلك الحواس إلى المستوى الحضارىّ الذى حققته الحياة الاجتماعية . وحين يؤهلها مستواها المذكور للحكم الصحيح تصبح أقدر على تأدية دورها فى مجال ازدهار الفنون[1] » .

وقد جاءت هذه النبذة شرحاً لقول « إنجلز » :

« نظر النسر أبعد مرمى من نظر الإنسان ، ولكن عين الإنسان تلحظ من الأمور ما لا تلحظه عين النسر » .

ومما يؤخذ على هيجل كذلك قوله « إن الفن يفسر الحقيقة بصور محسوسة ؛ فهو يجسد الفكرة . ويتميز الفن الإغريقىّ بتمكينه للفكرة من التعبير الكامل عن نفسها ، ويتميز كذلك بتوافق بين الشكل والمضمون . ولكن الفكرة فى مرحلة الفن الرومانسى تنتصر انتصاراً ساحقاً على جسدها المادىّ الذى يصبح مجرد إطار لها ، وتغدو حرة طليقة ، ومن ثم ينقطع كل تناسق بين الشكل والمضمون » .

حقّاً إنه يعارض مذهب « كانت » الشكلى فى الأدب والفن ، ولا يرى لهما كياناً بغير مضمون . فالفن الإغريقى لم يزدهر ، على حد قوله ، إلا حين توفر له شكل ومضمون متوافقان ؛ والمضمون هو الفكرة . والشكل هو الصورة المجسدة التى

---

(١) كتاب « الأدب والفن » السالف الذكر ص ٤٨ .

تتقمصها الفكرة . وقد تطورت الفكرة — بحسب رأيه — دون شكلها ، حتى تخلصت منه على مر القرون ، فانحط الفن عندئذ ؛ أى انحط حين أصبح فكرة بغير صورة ، أو مضموناً بغير شكل .

ولكن هيجل لا يقع فى الغفلة بسهولة . فقد فطن إلى أن الأدب والفن يتميزان فى عصره ، كما تميزا دائماً عن غيرهما من أنواع التعبير ، بأنهما يعبران عن المضمون بالصورة . ولذلك استدرك فقال « إن جسد الفكرة المادى أصبح مجرد إطار لها » . ثم فسر ذلك « بأن الأدب والفن فى العصر الحديث مشغولان بالكليات والعقليات ، ولكنهما يضطران ، بتأثير الذوق الفنى المنفعل بالعاطفة والتأثر ، إلى ربط هذه الكليات والعقليات بمظهر معين محسوس ! » والذى يستخلص مما تقدم أن الفن عند هيجل هو تعبير عن فكرة بدائية بصورة أسطورية خرافية ! ! وهذا الرأى هو الذى أوحى إلى « توماس مان » قوله : « ليس الشاعر اليوم إلا هيجيًّا يعيش فى القرن العشرين » .

لقد فات هيجل ، وهو أول من فطن إلى قانون التطور المطرد للوجود ، أن الفكرة لم تتطور وحدها عبر القرون ، ولكن الشكل الذى تتقمصه تطور أيضاً . فهى لم تعد فكرة بدائية ، عاجزة عن فهم الواقع المحيط بها ، تتقمص صورة أسطورية لا علاقة لها بالحقيقة الموضوعية ، ولكنها أصبحت فكرة تحاول فهم الوجود على حقيقته ، وتعبر عن مفهومها له بصور واقعية حقيقية .

لقد عرّف « نيدوشيفين » الفن بأنه « تفكير بالصور » ، وأخذ عدد المسلمين بصحة هذا التعريف يتزايد على مر الزمن ؛ ويعنى التسليم بصحته أن الفن يعتمد فى إبداع آياته على كل من الإدراكين العقلى والحسى على السواء .

ولابد أن نذكر هنا فى اقتضاب أن الأدب العربى القديم كان أول أدب فى تاريخ البشرية سلك الطريق السليم فى تفهمه للواقع المحيط به ، مستعيناً فى ذلك على الإدراكين الحسى والعقلى المتاحين له فى عهده البعيد . فهو لم يشطح وراء الوهم لفهم ذلك الواقع ، ولم يفسره تفسيراً أسطوريًّا ، ولم يلجأ إلى المبالغة والتهويل فى تصويره ، ولكنه عكسه ببساطة أصيلة فى صور وتشبيهات طبيعية تمثله أدق تمثيل ، وعبر عن الأحاسيس المتولدة منه تعبيراً أميناً ، وحللها تحليلاً صادقاً . . .

ولكن بعض مؤرخى الأدب فى الغرب أهمل الحديث عن هذه المميزات كل الإهمال ؛ وتطرف بعضهم الآخر فى تحيزه للأدب الإغريقى — متأثراً على الأغلب بهيجل — فوضع مآخذ ذلك الأدب فى كفة الحسنات ، كما وضع مميزات الأدب العربى فى كفة المآخذ ، زاعماً أن الأدب الأسطورىّ الوثنىّ وليد الخيال المبدع المحلّق ، والأدب الصادق فى تصوير الواقع وليد الإدراك الحامل المجدب . . . ومن الأسف أن كثيرين ممن درسوا عندنا تاريخ الأدب عن طريق أولئك المؤرخين يقتنعون برأيهم هذا ، ويرددونه دون تمحيص ، على ما فيه من تجن على الحقيقة ، وانتقاص جائر مغرض لقدر أدبنا العربى . . .

وإذا كان أولئك المتحيزون يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون فإنهم لا يستطيعون أن يغيروا الواقع التاريخى الذى يجد فى هذه الأيام ، حتى بين مؤرخى الغرب أنفسهم ، عدداً من المنقبين عنه ، المتحمسين لكشف الحقيقة الخالصة ، المنوهين بها حتى فيما إذا لم توافق ميولهم ومعتقداتهم .

إن ذلك الواقع التاريخى ينطق فى غير لبس بأن الأدب الأوربى أفاد من خصائص الأدب العربى المذكورة منذ احتكاكه به ؛ وأنه وضع قدمه ، لأول مرة ، فى الطريق السليم للتطور بعد أن تخلص من الطابع الأسطورى الوثنى الذى اكتسبه من الأدبين الإسكندناڤى والإغريقىّ واتسم بطابع الأدب العربى الإنسانى الواقعى ، هذا الطابع الذى ظهر واضحاً كل الوضوح منذ اتصال الأوربيين بالعرب . . . وسيأتى بيان ذلك تفصيلاً فى حينه .

ولكن ليس معنى هذا أن حركة التطور والتغير توقفت لحظة واحدة ؛ فقد ظل الأدب العربىّ القديم يتطور ويرقى مقتفياً أثر الحضارة العربية الإسلامية الصاعدة بدورها فى مرتقى التقدم . حتى إذا أصابها الضعف والانحلال لأسباب لامحل لشرحها هنا ، أصيب هو أيضاً بمثل ما أصيبت به ، وانتكس تطوره ، وعاد القهقرى على أعقابه . ولكن الأدب الأوربى الذى أفاد منه ، واصل الخطوات التى بدأها الأدب العربى ، حتى وصل إلى المستوى الذى وصل إليه اليوم .

ونعود إلى ما نحاول إثباته ، وهو تأثر العلم والأدب كل منهما بالآخر وهما يصعدان فى مرتقى التطور والتقدم — ونكرر هنا حقيقة هامة سبق أن ذكرناها وهى

أن رقى أحدهما لا يؤدى آلياً ، أو بطريق مباشر إلى رقى الآخر ، فهناك عوامل معنوية ، وأسباب موضوعية ، تؤدى إلى تأخير موعد ذلك التأثر أو تقديمه . وقد قال أحد المفكرين فى ذلك ما معناه : إن الأدب والفن لا يتبعان التقلب الاقتصادى كما تتبعه أسعار بورصة العقود صعوداً وهبوطاً . . .

لقد رأى فلاسفة القرن الثامن عشر « العقليون » أن تطور البشرية يتم بتوجيه العقل ، وأن الأدب والفن ينبثقان من نوره . ولكن فلاسفة القرن التالى « الواقعيين » خالفوا هذا الرأى على أساس أنه « يهمل تأثير نشاط الإنسان العملى فى نشاطه العقلى ؛ علماً بأن تغيير الإنسان للطبيعة ، أو لواقعه المادى ، هو المصدر المباشر لانبثاق الأفكار ؛ ولم يترعرع ذكاء الإنسان إلا بمقدار وقوفه على وسائل تغيير الطبيعة »[1] .

وأهم ما يستند إليه القائلون بعدم ملاءمة العصر الحاضر لازدهار الأدب والفن أن العلم وصل فى تقدمه إلى أوج لم يخطر ببال ، ولم يرق إليه خيال ؛ وأنه حقق من المنتجات المادية ما بهر الناس ، فانفرد بتقديرهم وإعجابهم حتى أنهم تساءلوا أية فائدة تعود على الحضارة الحديثة من الأدب والفن ما دام أنهما لا يسهمان بأى نصيب فى حركة البناء العمرانية الراهنة !

أعاد تقدم العلم إيمان بعض الناس بالعقل وحده ، ولكن الإيمان الجديد بالعقل يختلف عن إيمان الفلاسفة العقليين القدامى به ، فهؤلاء كانوا يرون العقل مصدر العلم ، ومصدر الأدب والفن على السواء ، فى حين لا يقدره المؤمنون به اليوم إلا على أساس مساهمته فى ميدان الإنتاج المادى ؛ فهم لا يحتفلون إلا بهذا الإنتاج وحده .

ولم يسكت المقدرون لقيمة الفن بطبيعة الحال ، وهبّوا للدفاع عنه قائلين إنه لم يعد اليوم مجرد زخارف وهمية متولدة من الحس البدائى ، كما كان فى الماضى . ولكنه أصبح يتميز بمضمون فكرى إلى جانب تميزه بالشكل الجمالى ، أى يتميز بالفكرة المعبرة عن مفهوم صحيح للحياة ، وبالصور الفنية الجميلة التى تنقل الفكرة إلى الذهن دون حاجة إلى تدليل . . . إنه لم يعد ترفاً يتمتع به الناس ، وحديث فراغ يزجون به أوقاتهم ، بل أصبح ، منذ اهتمامه بشرح حقائق الوجود ، وتبصير

(١) يراجع الكتاب السالف الذكر ص ٤٦ .

الناس بها ، وتمكينهم من التغلب على عوائق تقدمهم ، يستهدف نفس أهداف العلم ؛ وإن توسل إلى ذلك بغير الوسائل العلمية ، ويعنى بالأفراد والمجتمعات ونواميس تطورها أكثر من عنايته بالنواميس الطبيعية العامة ، ويمتحن الجزء للوصول إلى الكل ؛ أى أن الفن يتناول بالتصوير المدروس وقائع خاصة ، وأفراداً معينين فيصل دون أن يبدو قصده ، إلى إيضاح حركة التطور العامة للأفراد والمجتمعات ، وما تسفر عنه هذه الحركة من معتقدات وميول وقيم أخلاقية .

ولكن هناك أدباء ما زالوا يعيشون فى عزلة عن الحاضر الحديث ، وغفلة عن أثر العلم فى مختلف ميادين النشاط الإنسانى ، ومن بينها ، بطبيعة الحال ، ميدان الأدب والفن . ويصرون على أن الفنان الأصيل هو الذى يدرك الحياة بحسه لا بعقله . . . هو الذى يحيا الحياة ولا يحاول فهمها وتفسيرها ، فهذه المحاولة تشوّهها وتفسدها . . . ويستند كثيرون ممن ينحون هذا المنحى إلى القول الذى أشرنا إليه سابقاً ، وهو أن العواطف والأحاسيس تضمحل وتنضب على قدر نمو العقل وترعرعه ، وأن المعنويات تنكمش وتتقلص على قدر استفحال الماديات وطغيانها . . وعلى ذلك تتدهور الفنون وتذبل على قدر تقدم العلوم وازدهارها . . .

أسفر نمو العقل البشرى عن التقدم العلمى ، وحقق العلم فيما حققه ، خلال تقدمه ، تسخير الآلات فى إنتاج حاجيات الإنسان بالجملة ، واندفع أصحاب رؤوس الأموال إلى إنشاء المصانع ، وتوسعوا فى ذلك تلهفاً على زيادة أرباحهم ، واتسعت رقعة المدن ، وتكاثر سكانها ، وراجت التجارة ، وأصبحت للمال قيمة وقدرة ، فى ظل النظام الرأسمالى ، أكبر من قيمته وقدرته السابقتين ، فهو وسيلة الإنسان إلى التمتع بأسباب الرغد الجديدة ، ووسيلته كذلك إلى السيطرة على أجهزة الحكم ، وتسيير الأمور وفق مصلحته وهواه . ومن ثم نشب صراع بين الناس لا ضابط له فى سبيل الفوز بأكبر قدر من المال ، وعصف القادر بالضعيف فى هذا المعترك ، وحمله الجشع على المتاجرة حتى بالمثل الأخلاقية ، والقيم الإنسانية التى تجرد منها فى الواقع ، وإن ادعى التمسك بها فى الظاهر . ونضبت العواطف النبيلة فى قلوب عبيد المال ، وحلت القسوة محل الرحمة ، والأنانية محل التضحية ، والاستئثار محل الإيثار ، والعداء محل الإخاء . ونشأت مثل فكرية جديدة تبرر

استغلال الأقوياء للضعفاء . وظهر أدب أصيب بعدوى الانحلال ؛ أدب يمالئ دوى السلطان . ويحاول دعم تلك المثل الفكرية الزائفة ، وعملت القوى الرجعية على تأييده وترويجه . كما عملت على خنق الأدب المناوئ لتلك الأوضاع الجائرة .

ولم يكتف أصحاب المال والسلطان باستغلال مواطنيهم ، بل طمعوا كذلك فى بسط سلطانهم على أمم أخرى ، واستغلالها هى أيضاً ، فأمدهم العلم بوسائل التدمير والتقتيل بالجملة ، ومكنهم بذلك من الإمساك بخناق تلك الأمم واستعبادها.

لم يسفر التقدم العلمى عن تلك المآسى إلا بفعل أولئك الذين استغلوه . وسخروا فتوحاته الباهرة فى تحقيق مآربهم الخاصة . واستهدفوا بوساطته غير الأهداف التى توخاها . ولكن المغرضين الممالئين للقوى الرجعية المستغلة لا يحملون تلك القوى أزمة هذا العصر المعنوية ، ومسئولية انتشار الانحلال الخلقى المتولد من تنكرها ، فى سبيل تحقيق مطالعها ، للمثل الأخلاقية ، والقيم الإنسانية ، بل يحاولون التمويه ، وصرف الأنظار عن مخازيها ، بنسبة الأزمة المعنوية الراهنة للتقدم العلمى . والازدهار المادىّ .

غير أن النظام السياسى الجائر الذى خلق تلك الأزمة يوشك أن ينهار ، ويخلى السبيل للاشتراكية التى تنوخى القضاء على استغلال الإنسان للإنسان ، وإحلال العدالة الاجتماعية محل الجور والطغيان ، وعندما يتحقق ذلك فى مختلف الأرجاء تزول أسباب أزمة هذا العصر المعنوية ، وتتبوأ المثل الأخلاقية مكانتها ، ويتحول العلم من خدمة أغراض المعتدين إلى خدمة أغراض العاملين على بناء حياة أفضل ، أو بعبارة أصح ، يتفرغ لخدمة الناس جميعاً على قدم المساواة .

بيد أن العلم ، على الرغم من الأزمة المعنوية المتولدة من الصراع الدامى الظالم الذى أثاره الطامعون فى اقتطاف ثماره ، لم يحقق للإنسانية ازدهارها المادى الراهن فحسب ، ولكنه حقق لها أيضاً ، كما سبق أن قلنا ، ازدهاراً أدبيًّا وفنيًّا لا ينكره إلا الذين لم يفطنوا إلى حركة التطور الحضارى المنطلق دائماً إلى الأمام ، خلال مسيرته العامة ، فى كل ميدان من ميادين النشاط الإنسانى .

والعلم لم يعدم أناساً ينفون عنه تسببه فى التدهور المعنوى الراهن ، وإن كان أغلب هؤلاء يتجنبون دائماً كشف الغطاء عن الأسباب الرئيسية التى أدت إلى

ظهوره بمظهر المتسبب فيه . . . وهذه الأسباب هى ، كما قلنا ، سواء استغلال كشوفاته ، وسوء توزيع ثمراته .

ومن أولئك المدافعين عن العلم « ألبير بابيه » الذى حاول فى كتابه المسمى « أخلاقيات العلم » أن يظهر فضله ، أى فضل العلم ، على ازدهار الحضارة الراهنة ، ونهضة فنونها وآدابها ، ويقيم الدليل على أن له أخلاقيا ته . وقد اعترف بأنه تسبب فى اقتراف بعض الآ ثام ، ولكنه نفى عنه مسئولية ذلك دون أن يفضح المسئولين الحقيقيين عن تلك الآثام .

جاء فى كتابه المذكور[1] : « يقول بعض الناس : العلم مناوئ للأخلاق مفسد فى الأرض إذ يزيد قدرتنا على سفك الدماء ، ويجعل الإنسان عبداً للآ لة ، ويزوّد البغضاء ، والشره بسلاح خطر . . . » ثم استطرد الكاتب قائلا[2] : « أيحق لنا أن نقول ذلك ؟ أيحق لنا أن ننحيه وننصرف عنه كأنه مناوئ للأخلاق ، أو كأنه لا شأن له بالأخلاق ؟ كيف يسوغ لنا أن نزعم أن أمثال هذه المخترعات التى لا يطاولها الوهم ، والتى تغيّر أمام بصرنا صورة الكون ، هى شىء لا أثر له فى الحقائق العميقة ، حقائق الحياة الباطنة ، ولا فى الشعر والعواطف ، ولا فى الحركات الكبيرة التى توجه سير العالم ؟ »

وجاء فى صفحة ٣٠ من الكتاب المذكور : « ولست أرى فى هذه المعارضة التى يحاول بعض الناس توجيهها إلى العلم إلا آخر جهد تبذله قوى الماضى لمكافحة قوى الحاضر » .

ويقول الكاتب فى صفحة ٣٩ من نفس الكتاب : « والذى يوقع بعض الناس فى الخطأ هو أنهم يخلطون على الأغلب بين العلم نفسه ، وبين التطبيقات المستفادة منه » .

ولكن « بابيه » لم يشرح لنا فى أى موضع من كتابه ، مختلف أوجه التطبيقات التعسفية للعلم ، ومن هم أولئك المتعسفون فى تطبيقه ؛ بل لم يشرح الأوضاع السياسية والاجتماعية التى مكنتهم من ذلك ، إلا إذا استثنينا قوله : « الموت الذى

---

(١) ص ٢٧ من طبعته العربية المترجمة بقلم الدكتور عثمان أمين ، المنشورة باسم « دفاع عن العلم » .

(٢) ص ٢٩ من الكتاب المذكور .

سببه الفولاذ والنار ، والآلام التى تحدث فى المصنع ، والسخافات التى تذيعها السينما : كل هذا ليس من صنع العلم ، ولكن من صنعنا (نحن)[1] » .

هكذا يأبى الكاتب أن يوجه الاتهام فى صراحة إلى الذين سخروا العلم فى اقتراف الآثام ، وإشاعة الفساد ، وتوطيد أركان الاستعباد ؛ بل يوجه الاتهام إلينا « نحن » ، أى إلى الناس جميعاً ، ولو أنه اتهم الآثمين الحقيقيين صراحة ، وأيد اتهامه بالحجة الدامغة ، لاكتمل دفاعه المجيد عن العلم ، ونجح فى إظهار براءته ناصعة خالية من كل شائبة ، وتحويل سهام النقد الموجهة له ، إلى صدور مستعبديه ، ونصرة العاملين على الإطاحة بدولة أولئك المستعبدين ، وتحريره من ربقتهم ، وتمكينه من الانطلاق حرًّا فى سبيل خدمة الناس أجمعين .

نجمل ما تقدم فنقول إن الازدهار الحضارى الحالى ، المادىّ منه والمعنوى ، هو ثمرة عمل الإنسان ، وخبرته المكتسبة من العمل ؛ وهذا العمل وهذه الخبرة رفعا مستوى ذكائه ، ووسّعا أفق علمه ؛ ثم زاده ارتفاع مستوى ذكائه ، واتساع أفق علمه ، إتقاناً لعمله ، واستفادة من خبرته ، وظل هذا التأثير والتأثر المتبادلان المتواصلان يرفعان على التوالى مستوى حياته المادية ، ومستوى فنونه ، وآدابه على السواء . . . إن الأدب والفن لا يعيشان بمعزل عن الناس ، ولا يتجاهلان معتقداتهم وميولهم ، بل يعبران عنها ويشرحانها ، ويسموان بمقدار سمو تلك المعتقدات والميول . ولا تخفى الرابطة بين هذا السمو ، وتقدم العلوم والمعارف .

ولا بد من كلمة نعلق بها تعليقاً أخيراً على الذين يرون أن الحضارة الراهنة ليست إلا حضارة صناعية مادية ، وهى لذلك غير ملائمة لازدهار الآداب والفنون ... إن هؤلاء يخلطون بين ارتفاع المستوى المادىّ لحياة الناس ، وبين تكالب المتكالبين على الماديات ، وتضحيتهم فى سبيلها بالمعنويات على نحو ما يحدث فى ظل النظام الرأسمالى .

ليس ازدهار الماديات هو الذى يؤدى فى ذاته إلى هوان شأن المعنويات ، وبث العراقيل فى طريق التقدم الأدبى والفنى . فالعكس هو الصحيح كما ذكرنا ؛ أما الذى يؤدى إلى هذا الهوان ، وبث تلك العراقيل ، فهو النظام الرأسمالى وحده .

---

(١) ص ٤٢ من الكتاب المذكور .

ذلك أن أصحاب المال والسلطان ، فى ظله ، يحاولون السيطرة على الأدب والفن بوساطة دور النشر والصحف والمجلات وغيرها من أجهزة الإعلام التى يمولونها ويوجهونها كيفما يشاءون . ومن ثم لا يسمحون بترويج أية أعمال أدبية وفنية إلا إذا مالأتهم ، وجارت أهواءهم ، وزينت معتقداتهم ، وخدمت أهدافهم ، وصلحت أسلحة يحاربون بباطلها حق خصومهم ؛ والمشتغل بالأدب أو الفن ينتج مثل تلك الأعمال التى تتضمن مفاهيم زائفة ، أو لا تتضمن مفاهيم أصلاً — وهذا النوع الأخير من الأعمال الأدبية والفنية يرضى أولئك السادة أيضاً — إما لانتمائه إلى طبقتهم ، أولا نخداعه فيما يروّجون من معتقدات وآراء ، أو طمعاً فى الشهرة والمال ، أو إيثاراً للسلامة وراحة البال .

أما الفنان الأصيل الصادق فلا يجد ، فى ظل النظام الرأسمالىّ ، مجالاً ملائماً لمواصلة إنتاجه ، ووسائل ناجعة لترويج أعماله ، ولكنه يعمل ، برغم تلك العراقيل ، غيرة منه على الحق المهدر ، ويبدع آيات ذات أثر فى معترك الحياة ؛ ذلك أنه بوقوفه فى المعترك الرأسمالىّ إلى جانب القوى المناهضة للعسف ، المناضلة فى سبيل الحق ، وتصويره المشاهد المثيرة من النضال المشتعل بين تلك القوى ، والقوى الرجعية ، وكشف الحقائق الخطيرة التى تعجل بانتصار الحق واندحار الباطل ، تتاح له فرص نادرة لإبداع آيات فنية تفيض بأنبل المشاعر ، وتزخر بأروع الصور .

بيد أن النقاد الممالئين للقوى الرجعية يسفّهون ، بطبيعة الحال ، مثل تلك الأعمال ، وينكرون صلتها بالأدب ، ويسلكونها فى سلك الدعاية . فالأدب فى زعمهم شكل جميل يتضمن أخيلة بديعة ، وعواطف رقيقة ، والزج به فى معترك الحياة يخرج به عن مهمته ، ويفسد شكله ومضمونه على السواء . . . ولكن التاريخ الأدبى يدحض زعمهم ، فالأعمال الأدبية التى كتب لها الخلود هى التى اشتركت مع قوى الخير والحق فى نضالها ضد قوى الشر والباطل ، وساهمت بنصيب كبير فى تعجيل انتصارها عليها .

وهناك عدد غير قليل من الناس يؤمن بالدعوة التى رددها «روسو» و «تاجور» وغيرهما من الذين سخطوا على الحضارة لتوهمهم أنها المسئولة عن شقاء البشر ، وحسبانهم أنها غير ملائمة لازدهار الآداب والفنون . . .

يدعو أولئك المفكرون سواد الناس إلى نبذ الحياة الحضارية ، والعودة إلى أحضان الطبيعة ، والعيش فى ظل غاباتها الظليلة ، حيث تطالعهم الحياة بألوان جمالها الطبيعىّ الساحر ، وتوفر لهم أسباب الصفاء وراحة البال . وتوشج بينهم أواصر الحب والإخاء ، وتهيئ أنسب مجال لازدهار أدب وفن يتضمنان أبدع المعانى ، ويعبران عن أرق المشاعر ، ويتنزهان عن تصوير مثل المكاره التى ظفرت بالجانب الأكبر من اهتمام الفن الحديث .

ومن الواضح أن تحقيق هذه الدعوة بعيد عن توفير السعادة التى زخرفها خيال أصحابها ، فلو سلمنا بأن الناس فى الغاب لن يخضعوا لقانونه ، وهو قانون الظفر والناب ، ولن يملوا الحياة الرتيبة الخاوية التى يحيونها فى ظله ، فمما لا شك فيه أن هذه الحياة البدائية الفطرية ستعود بهم القهقرى فى نفس الطريق الذى صعدوا منه ، وتفقدهم بالتدريج صفاتهم الحضارية التى اكتسبوها بعملهم عبر السنين على تطوير الطبيعة ، وبالخبرة والفطنة المكتسبتان من ذلك العمل ، وتنمى فيهم على التوالى غرائز جدودهم الأول الذين عاشوا على طبيعتهم الهمجية فى عصر ما قبل التاريخ ... وليس إنكار هذه الحقيقة إلا إنكاراً لأثر البيئة فى تكييف الإنسان ، ذلك الأثر الذى لم يعد يختلف عليه اثنان .

إن السعادة الحقيقية لا تتوفر للإنسان إلا باستشعار قدراته التى لا تحد وهو يواصل العمل الإبداعىّ للوصول بحياته الاجتماعية ، من الناحيتين المادية والمعنوية ، إلى مستويات مطردة الارتقاء ، وتوطيد النظام الذى يكفل للناس جميعاً الاستمتاع ، على قدم المساواة ، بالرفاهية التى يسفر عنها مسعاه ، وردع القوى التى تحول دون تحقيق تلك الغاية . . . وعندئذ يسود الصفاء والإخاء فعلاً ، وينعم الجميع بالحرية التى تخلق أنسب الظروف لازدهار الآداب والفنون .